مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
العدد الحادي والعشرون - المجلد السادس - اللغة العربية - تموز 2023 م
doi.org/10.52866/esj.2023.06.21.10

الأنا الحكيمة
في ديوان ابن الحداد الأندلسي

نسرين إسماعيل إبراهيم العلواني ، أ.د بشار خلف عبود
جامعة الأنبار / كلية الآداب - قسم اللغة العربية
nes20a1028@uoanbar.edu.iq ، alhawijadr@uoanbar.edu.iq

مستخلص :

ينهض البحث بدراسة الأنا الحكيمة الناصحة عند ابن الحداد الأندلسي ، وتسليط الضوء على هذه الجزئية التي جاءت كردة فعل ونتيجة حتمية لمعاناته وآلامه ورفضه – في كثير من الأحيان – من الآخر المحبوب ، فكان لهذه الأنا الحكيمة نصيبٌ وافرٌ من أشعاره؛ لما احتواه هذا الموضوع من مساحة شغلت ذهن ابن الحداد كثيراً لاسيما أنه كان يعيش في ضمن جوٍ عاطفي متفائل تارة وقلقٍ تارة أخرى. وقد نالت الأنا في ديوان ابن الحداد الأندلسي جزءاً مهمّاً، فاتخذ من الأسلوب الوعظي الحكمي وعاءً أفرغ فيه مفرداته وصوره التي تتناسب مع غرضه، بشكل وبأسلوب فني قائم على ألوان البديع والبيان على حدّ سواء.

الكلمات المفتاحية: الأنا ، ابن الحداد ، الحكيمة ، الأندلسي.

al'ana alhakimaThe wise ego
in the book of Ibn al-Haddad al-Andalusi

Nisreen Ismail Ibrahim al-Alwani / Prof. Dr. .Bashar Khalaf Abboud
Department of Arabic Language, College of Arts, University of Anbar, Ramadi, Iraq
nes20a1028@uoanbar.edu.iq alhawijadr@uoanbar.edu.iq

Abstract :

The research promotes the study of the wise ego counselor when Ibn al-Haddad Andalusian, and shed light on this part, which came as a reaction and the inevitable result of his suffering and pain and rejection - often - of the other beloved, this wise ego had a large share of his poems; The ego in the Andalusian Diwan of Ibn al-Haddad has received an important part, so he took the preaching style of judgment as a container in which he emptied his vocabulary and images that suit his purpose, in a form and in an artistic style based on the colors of Budaiya and Bayan alike.

KEYWORDS: **The ego, the son of the blacksmith, the wise, the world, Andalusian.**

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين وعلى اله وصحبه أجمعين. وبعد:

حظي العصر الأندلسي بكثير من الدراسات الأكاديمية التي تناولت بالشرح والتحليل والتفسير أدبه من شعر ونشر، فضلًا عن القضايا المتعلقة بالشعراء والكتاب على حد سواء، وهو ما يعني أهمية كبيرة لنتاج ذلك العصر ودراساته التي تشي بوعي مؤليفها وباحثيها.

غير أنّ هذه الدراسات المهمة لم تتضمن بحدود ما أعلم دراسة بحثية مستقلة عن الأنا في شعر ابن الحداد الأندلسي (ت480هـ) ولا سيما وأنا الناصحة الحكيمة، وإذا ما وجدت فإن وجودها لا يعدو أن يكون إشارات مقتضبة أو لمحات سريعة موجزة، مما ساعدني هذا الأمر على المضي قدماً في تتبع هذه الجزئية ورصد أبعاد ها وحضورها في شعر ابن الحداد.

إنّ غرض الحكمة لم يكين مستقلًا بذاته منذ القدم، وإنما جاء مخالطًا للأغراض الشعرية الأخرى من غزل، وفخر، ومديح، ورثاء، وغير ذلك، إلى أن استقال في عصر بني العباس وخبت جذوته بين الشعراء، والسبب يعود إلى الشعراء الذين انصرفوا إلى الحياة اللاهية، ومع هذا كله نجد شعراء نظموا قصائدهم ومقطوعاتهم على تنبيه لناس وتحذيرهم من الفرض في الملذات، ثم تطور شعر الحكمة واصبحت القصائد الطوال والمقطوعات تنظم فيه على منهج واضح، وبات وسيلة للتربية والتعليم والتهذيب والحث على الأخلاق الجميلة، واللجوء إلى الله تعالى، والعفو عن الناس، والمصالحة بينهم، لهذا لم يخل عصر من المصور الأدبية من الحكم، فالحكمة في الأدب الأندلسي زاحمت بقية الأعراض، وكان لها حظ وافر في الشعر، ونصيب في التأملات الفلسفية.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في أنه يلقي ضوءًا على الملامح الرئيسية لصورة الأنا ولاسيما الحكيمة في شعر ابن الحداد، معتمدين في ذلك على النصوص الشعرية المناسبة في ديوانه التي تخدم توجهات البحث ومنطلقاته.

دوافع البحث:

من الأسباب التي قادتني إلى اختيار هذا الموضوع الحرص على معرفة المحكمة التي كان ابن الحداد قد تمتع بها، وشكواه وآلامه من النصر الخؤون والزمان المتقلب والحياة المتلونة.

الدراسات السابقة:

لم نكد نعثر على دراسة حملت العنوان والجزئية نفسها، وكلما وجدناه دراسات شامله للشاعر ابن الحداد وأهمها:

1. البديع في ديوان ابن الحداد الأندلسي دراسة بلاغية نقدية لـ : عنود بنت أحمد بن حليس العنزي في جامعة أم العترى.
2. التشكيل المعرفي في شعر ابن الحداد الأندلس، للدكتور أسامه احتيار وهو بحث في مجلة جامعة دمشق / 2013.
3. جماليات القصيدة الغزلية في شعر عبد الله بن الحداد، دراسة مقدمة من قط نسيمة وهي رسالة ماجستير / الجزائر 1430 هـ.

منهج البحث:

اتبعت في دراستي هذه منهجًا وصفيًا تارة، واستقرائياً خليلياً تارة أخرى هذا ما استطعت قوله في المقدمة وقت الدراسة بشكل عام، فإن وقعت فمن الله -جلَّ في علاه- وإن كان غير ذلك فمن نفسي، (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين).

التعريف بالشاعر:

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم بنا الحداد القيب، الوادي آشي، الأندلس، ولقبه مازن، وقيل اسمه مازن، ولم تذكر المصادر سنة ولادته كما لم تذكر سة مكان ولادته، غير أن المصادر أجمعت على انه سكن المريه وأصله من مدينة - وادي آش.

إذ إن والده كان يعمل حدادًا في وادي آش، فقد أعقل مؤرخو الأدب الحديث عن عائلة ابن الحداد، باستثناء ابن عبد الملك المراكش، ل ي أثار اشارة عابره إلى أن والدته من أسرة عربية مرموقة بقرطبة تنسب إلى بني تميم.

وهكذا ينحدر ابن الحداد من أصل عربي مشرقي الجهة الآب والأم معاً، ولكنه لم يكن من أسرة ثرية بسرت له المناج العلمي المشجع وسمحت له بات يتأدب على شيوخ عصره أو يقوم برحلة للعلماء، فاستقى بذلك ثقافته عن طريق مطالعة الكتب، وبذلك يكون قد اعتمد في تحصيل به معارفه على ذاته فكان ابن الحداد نموذجاً فذًا في الثقافة، واسع العلم، عميق الإدراك معرف كيف يفيد بذهنه المتوفد الكثير من موروث العرب والإسلام، فكانت له مشاركة في علوم العروض، والفلسفة، والرياضيات، والملاك، والنحور والفقه، والتاريخ، ولذا لم يكن شاعراً، وناثراً، وعروضيا وحسب بل كان موسيقياً، وفيلسوفاً، ومنجمًا، ومنها عالماً متجراً بعلم التنجيم[1].

فمن خلال ذلك نجد أن ابن المداد كانت ثقافته غامرة وزاهرة بالوان العلوم والمعارف، فلم يدع علمًا إلّا ضمنّه فيما في شعره وأوردة ، ولهذا حاز على اعجاب صاحب الذخيرة ابن بسّام.

حيث نجد ابن الحداء قد اعتمد على إرث ثقافي في جوانب كثيره من شعره وهذه المرجعيات إذا حضرت في النص الشعري، فإنها تقوي النص، وتجعل الخطاب مفهوماً والاتصال بالمتلقي مضمونًا كما تعل على عمق اطلاع، الشاعر وسعة أفته، وتضمن النص الشعري الرصانة والقوة وتبصر به عن الركاكة والضعف ومن هذه المرجعيات[2]:

1 - **المرجع الأدبي**: في هذا الموجع يعمد الشاعر إلى انعام نصوص أدبية سابقة، سواء كانت شعرية أم شريه في نصه الشعري ظناً منه أن هذه النصوص تحقق نمه الشعري القوة والنجاح.

ومن الضروري عند إيراد هذه النصوص أن تكون ملائمة لواقع الحال للذي يود الشاعر الخوض فيه، فإذا كان استخدامه موفقًا فإنه سيعطى النص، الشعري جمالاً، ومن جانب آخر، فإن النص الشعري الذي يورده الشاعر في نصه من شأنه أن يحفر ذاكرة المتلقي على الموازنة بين النصين الأدبين، القديم والجديد، وهل استطاع الشاعر أن يوفق في إتمام هذه النصوص بالصورة المقبولة[3].

2 - **المرجع الديني**: للدين تأثير واضح في أخلاق الفرد، وسلوكه، ولاسيما في المجتمع الاسلامي

(1) ينظر: بديع في ديوان ابن الحداد الأولي - دراسة بلاغيه قدية : 5.

(2) ينظر: بديع في ديوان ابن الحداد الأولي - دراسة بلاغيه قدية:7.

(3) المصدر نفسه:8.

ويعد المرجع الديني من طرق الاستدلال بوصفه يدل على رسوخ إيمان الشاعر ومدى تأثره بالدين الإسلامي.

لهذا جاء توظيف ابن الحداد للنص الديني (القرآني) في ثنايا نصه الشعري من خلال إيراد النص أو بعض متعلقاته فتلاحظ أن توظيف القرآني قد هيمن، على عرض المديح ليضفي على ممدوحه سمات الشجاعة، والجود والسخاء، ولها أصولها الجاهلية التي استمرت مع مجيء الإسلام.

3 - **المرجع التاريخي**: التاريخ فيه جانب الاعتبار وتجارب السابقين، وعندما يشتمل النص الشعري على شيء منه، فإنه يعد تواصلاً مع الماضين وذكر مآثرهم، لهذا لجأ الشاعر إلى التوظيف التاريخي في شعره، والإفادة من تجارب الماضيين، والنظر إليها بعين الاعتبار والفائدة

4 - **المرجع العلمي**: عندما يخرج الشاعر من دائرة الخطاب الغني إلى دائرة الخطاب العلمي، فإنه يمزج تجربة الإنسانية والعاطفية والتعبير عن مشاعره بإيراد خطاب علمي ناتج عن ثقافة واسعة، حيث ألم ابن الحداد بمجموعة من العلوم أفادته في إخفائها على النص الشعري.

5 - **المرجع الاجتماعي**: إن الشاعر انسان يرتبط بروابط بينه وبين أفراد مجتمعه، وبين بيئته عامة، ويتأثر بالعادات والتقاليد والأعراف، ويسير وفق ماهو متعارف عليه في مجتمعه أخلاقاً وسلوكاً، فابن الحداد خاض في شعره فيما يتعلق بالمجتمع النصراني، حيث إنه أحب في حباه فتاة نصرانية تدعى (نويره)، فمن خلال ما تقدم يمكن القول بأن هذه المرجعيات الثقافية شكلت دوراً مهمًّا في النص الشعري عند ابن الحداد به إذ استطاع أن يوظفها التوظيف الحسن في إثراء النص.

الأنا الحكيمة (الناصحة):

لعل أفضل ما قيل في الحكمة أنها معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. حيث جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: **(إنَّ من الشعر حكمة)**[1]. أي أن في الشعر كلاماً نافعاً ينهى عن الجهل والسفه. وقيل: أراد بها المواعظ والأمثال التي ينتفع بها الناس[2]. فالحكمة إذن «تأمر بكل ما يُحمد في البدء أثره ويطيب عند الكشف خبره ويؤمن في العواقب ضرره»[3].

أما علاقة الحكمة بالشعر فتلك محطةٌ اختلف النقاد حول وجود هذه العلاقة من عدمها، وهل هي تدخل في ضمن النص الشعري أم مستقلة بذاتها؟ وعلى الرغم من هذا الاختلاف إلا أنَّ هناك من أثبت أنها تدخل ضمن النص الشعري عطفاً على ما تحمله من انفعالات شعورية نقود الأنا البشرية إلى تصويرها في جسد النص الشعري خير تصوير، وهذا ما نلحظه في الشاعر ابن الحداد، فهو -وإن قلَّت نصوصه الشعرية- واحدٌ من أولئك الشعراء الذين أطلقوا العنان لتجاربهم الحياتية والشعورية؛ لأن تُثبتَ عن طريق نصوصهم الشعرية.

أما المصادر التي استقى منها ابن الحداد فلا تعدو أن تكون هذه الحكم قد استُقيَتْ من:

أولاً: التجربة الشعورية التي عاشها وأحَسَّ بها.

ثانياً: التجربة النفسية التي تتمثل بحجم المتاعب والمصاعب التي عاشها وألمت به.

ثالثاً: التأمل الذهني العميق والرؤى التي أكسبت حِكَم الشاعر مذاقاً شعرياً خاصاً، وميزته بطابع واقعي.

(1) صحيح البخاري: 6145.
(2) ينظر: 688.
(3) البصائر والذخائر: أبو حيان التوحيدي: 463.

رابعًا: الفكر والعقل اللذان كانا قد قادا ابن الحداد لأن تكون حِكمه نتيجة لفكر معين أو لثقافة شائعة.

إنَّ المعاناة الحقيقة للشاعر لها أثرٌ كبير في فلسفة الشاعر وتجربته الشعورية، حيث عَدَّها بعض النقاد أصلاً لكل نتاج شعري. ولما لم يكن للحياة قاموس ثابت تسير بموجبه الأحداث فقد انطلق ابن الحداد في بعض نصوصه الشعرية من نظرة حكيمة في ظل تحشيد لبعض المفردات والمعاني التي سلَّمَتْ مقاليد الأمور لسلطة الأقدار.

إنَّ تجارب الشعراء وحكمهم قد تختلف وتتباين من شاعر إلى آخر بحسب ما تمليه عليهم طبائعهم وتجاربهم وسائر تصرفاتهم.

فمنهم من اعتمد التجربة السطحية -كابن الحداد- فقل تأثيرها. ومنهم من استند إلى حجج وبراهين تكون كفيلة بالإقناع، فيسري تأثيرهما ويمتد إلى تجارب الآخرين، ولكن مهما يكن من أمر فإن خير الشعر (كما ذهب حازم القرطاجني ت 684هـ) هو «ما صدر عن فكر و ولع بالفن والغرض الذي القول فيه مرتاح للجهة والمنحى الذي وجه إليه كلامه»[1].

وما نلحظه أيضاً حاجة العقل (الفكر)، كانت قد سادت نصوص ابن الحداد الحكيمة، إذ كان قد خبر الناس واطلع على أحوالهم. ولسنا نظن أنّ احدًا يجهل أناه التي كانت حالمة طموحة منذ البداية، إلا أنَّ الحياة وقفت في وجهها ورفضت إرادتها ومنعتها من تحقيق غايتها ورغباتها، ومن خلال تجاربه الذاتية تبين لها أن العصر ليس بجانبها ولا جانب أمثالها، وبذلك سخط من الدنيا وأهلها بما لاقته من هوان في تحقيق غايتها. ولهذا نجد أناه الحكيمة إما ناصحة أو شاكية من الزمان والدهر والحياة، والناس[2]، كقوله:

(المجتث)

الناسُ مِثْلُ حَبابٍ والدَّهْرُ لُجَّةُ ماءِ
فَعالَمٌ في طُغُوٍّ وعالَمٌ في انطفاءِ[3]

استعمل شاعرنا في هذه الأبيات أسلوب النصح والإرشاد من خلال كشف الدهر للناس، فهو يرى ويقول بأن الناس في هذه الحياة على قسمين؛ قسم له حظ من الدنيا فوصل إلى مبتغاه، وقسم ثانٍ (وهو واحد منهم) لم يَحْظَ بشيء وأبتعد عن كل ما يريده ويتمناه، وهذا يعني أن الحظ هو الذي يلعب الدور الأكبر مع الإنسان لا التعب والمشقة والجهد، وهذه الأبيات تناقض البيت الذي ذكر سابقاً وذلك بقوله:

(البسيط)

إذا خَطُوا وتَرْوا في الأَرضِ شائِنَهُم
وللحصوبِ بها مَسْرى ومَنْسَراً[4]

وفي هذا البيت ينصح ويرشد بأن يتعب الإنسان ويكابد من أجل تحقيق مبتغاه.

وقد أكد ابن الحداد في معظم أشعاره الحكيمة على الحظ، فيقول في بعضها:

وعَلِمْتُ أنَّ السَّعْيَ ليس بِمُنجِحٍ
ما لا يكونُ السَّعْدُ من أعوانِهِ
والجِدُّ دُونَ الجَدِّ ليس بنافعٍ
والرُّمْحُ لا يمضي بغيرِ سِنانِهِ[5]

يرى شاعرنا في هذا النص الشعري أن الإنسان مهما سعى واجتهد فإنه إنْ لم يكن محظوظاً لن يستطيع الوصول إلى مبتغاه، فالجهد والعمل بمشقة

(1) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: 341.

(2) ينظر: الأنا في شعر المتنبي: 66.

(3) ديوان أبي عبد الله ابن الحداد الأندلسي: 153.

(4) ديوان أبي عبد الله ابن الحداد الأندلسي: 132.

(5) المصدر نفسه: 301 – 302.

إنْ لم يكن مصحوباً بحظ فهو كالرمحِ الذي لا سنان له. ونرى اعتماد ابن الحداد في أشعاره على الحظ يناقض رأي أو قول إبراهيم الحاوي ما نَصُّهُ: «قد أدرك الشعراء المسؤوليات الملقاة على عاتقهم، باعتبارهم المميز، والمعبر عن المد الحضاري الذي شمل الإنسانية جمعاء، ولا يتحقق لهم ذلك إلا إذا أرهقوا أنفسهم بالبحث، وحضوها بالثقافة، فقضية الكشف عن المواقف الحضارية تقوم على السعي المتواصل، والأمل المتجدد في كشف الجديد، ويبقى الأمل معلقاً بالشيء الباهي، والشيء البكر، وإلى أن يحدث هذا لابد أن يمشي الضجر بالنفوس، ويخلق لها التعاسة»[1].

فالإنسان العاقل الحكيم يجب ألاّ ينخدع في هذه الدنيا، فهي بأية لحظة يمكن لها أن تصد عنك وتدير ظهرها، فما هي إلا متاع الغرور، فالنابهون فيها لا يحققون مبتغاهم ولا يصلون أمانيهم والرزايا تأتي فيها متتابعة، أما النعم فهي تأتي كالبرق في سواد الليل[2].

وهذا ما نجده عند شاعرنا مقدماً نصائحه للناس وذلك في قوله:

(الخفيف)

حَيْثُما كُنْتَ ظاعِناً أو مُقيماً
دُمْ رفيعاً وعِشْ منيعاً سليماً[3]

يركز في هذا البيت على النصح وإرشاد الناس إلى الابتعاد عن ملذات الحياة وكل شيء قد حرمه الله سبحانه وتعالى، فالدنيا فانية زائلة، لذا وَجَبَ على الإنسان أن يحكم عقله ويكون سليماً في تصرفاته وأفعاله، أينما ذهب واستقر، كما يجب أن يكون رفيعاً في أسلوبه وتعامله مع الآخرين، يعرف حدود الله وما أحله وحرمه، لا يخدعه جمال الدنيا وما فيها؛ لأن الموت ولقاء الله -سبحانه وتعالى- في أي لحظة.

وفي مناسبة اخرى يؤكد على أن الدهر حينما يرفع إنسانًا أو عكسه فإنه لا يعمل ذلك متعمداً أو متقصداً مع تخطيط مسبق، إلا أنه كالمزن قد يفيد صوبه مكان ويضر بالآخر دون أدنى قصد أو اختيار .

(الكامل)

الدَّهْرُ لا يَنْعَكُّ مِنْ حَدَثانِهِ
والمَرْءُ مُنْقادٌ لِحُكْمِ زَمانِهِ
فَدَعِ الزَّمانَ فإنَّه لم يعْتَمِدْ
بِجَلالِهِ أحداً ولا بِهَوانِهِ
كالمَزْنِ لم يَخْصُص بِنافِعِ صَوْبِهِ
فقاً ولم يَخْتَرْ أذى طُوْفانِهِ[4]

كما نجد أن الأنا الحكيمة تشكو من الدهر الذي يحط ويسخط من أصحاب الكفاءات والعلم، ويرفع من أصحاب الجهل، وذلك في قوله:

(الطويل)

ولكنَّه الدهرُ المُناقَضُ فِعْلُهُ
فذو الفضلِ مُنْحَطٌّ وذو النَّقْصِ نامِئُ[5]

يتجلى في هذا البيت الشعري ضياع (الأنا الحكيمة) فالعلم والعمل ليس لهما نفعٌ إن لم يتمتع الإنسان بشيء من الحظ؛ لأن الحظ هو الذي له دور وليس المشقة والمكابدة، حيث نلاحظ حزن وإشفاق أناه على ذاتها، فـ «إنَّ إدراك الشعراء لطبيعة علاقتهم بالحياة، وهي علاقة مأساوية في معظم حالاتها؛ سبب في نقمة الشعراء، وثورتهم، وأن يتسرب الحزن إلى نفوسهم؛ فينعكس على نتاجهم

(1) حركة النقد: 203.
(2) ينظر: شعر الحكمة والزهد في عصر الطوائف: 18.
(3) ديوان أبي عبد الله ابن الحداد الأندلسي: 255.
(4) المصدر نفسه: 301.
(5) المصدر نفسه: 146.

الشعري العام»[1].

ينصح شاعرنا ويحذر الناس من الحياة الذي لم يرَ فيها سوى التقلب والخداع والآلام والأحزان، حتى وإن كانت حياة سعيدة فإنها متقلبة وغير دائمة فهي نافية، فيقول في هذا:

(الكامل)

تَجِدُ الحياةَ نفسيةً، ونُفُوسُنا
عزباءُ تَرْغَبُ عندها مُتَوَطِناً[2]

إنَّ شاعرنا ينظر إلى الحياة على أنَّها فانية، فيشدد على ترك الدنيا وملذاتها، والاتجاه إلى نعيم الآخرة من خلال القيام في الأعمال الصالحة المحببة إلى الله سبحانه وتعالى، والاتعاظ. وفي قوله الآتي:

(المتقارب)

وما الناسُ الاَّ فِعالُهُمُ
فَدَعْ ما تُزَخْرِفُهُ الألْسُنُ
سَجِيَّةُ أصل الفَتى فِعْلُهُ
بما عِندَهُ يَقْذِفُ المَعْدَنُ[3]

تركيز على أن أفعال المرء يجب أن تكون صالحة، وفيها حَثٌّ على القيم الدينية والأخلاقية، وتحذيرٌ من النميمة، فالإنسان يجب أن يكون في جوهره نقاء وصفاء محباً لذاته محكماً لعقله وآرائه متصالحاً مع أحكامه، حتى تكون أشعاره أكثر استجابة لدى المتلقي.

أما فلسفة البقاء والفناء والحياة والموت فقد راودته في غير مناسبة، منها قوله محذراً من الدنيا ومتاعها الزائل:

(الكامل)

إنَّ المَنِّةَ ليس يُدْرَكُ كُنْهُها
فَنَوافِذُ الافْهامِ قد وَقَعَتْ هُنا
في كلّ شيءٍ للأنامِ مُحَدَّرٌ
ما كان حَذَّرَهُ شَعيْبٌ مَدْيَنا
وحياتُنا سَفَرٌ ومَوْطُنا الرَّدى
لكِنْ كرِهنا أنْ نَحِلَّ المَوْطِنَا[4]

فهو قد نظر إلى الموت نظرة حكيمة ورأى فيها أن الحياة سفر، فمهما بلغ الإنسان من العلم والمعرفة والجاه والمال فلابد أن يدرك أن هذه النعم في الحياة فانية لا تنفع ولا تشفع له يوم القيامة، الشيء الوحيد الذي يشفع للإنسان في آخرته هي أعماله الصالحة، والالتزام بكل ما فرضه الله -سبحانه وتعالى- علينا، فالموت يحذر كل الناس في كل شيء.

لقد أحاط اليأس بابن الحداد نتيجة إحساسه بالهزيمة أمام حقيقة الموت، من حيث أنَّ تخيله للموت من جانب الاستسلام اليأس، لا من جانب الإيمان به، إذ نجد في قوله:

(الكامل)

هيهات ما تُغْني القَنابلُ والقَنا
والمَشْرفَّيةُ في ملاقاةِ المَنى
فَعَلامَ تَسْتاقُ العِتاقُ وإنْ جَرى
وجَرَيْنَ جاهِدَةً ونَيْنَ وما وَنى؟
وعلام تَجْتابُ الدلاص فإنَّها
ليْسَتْ مَوَانِعَ سُمْرَةٍ أنْ تُطْعَنا؟[5]

تأكيدًا على منية الموت، فهو يرى أن السيوف والرماح والقنابل غير قادرة على الحماية ولا تقف في وجه الموت إذا أتت المنية من دون قتال، فنلمس اليأس من الحياة في (أناه)، التي ترى أنّ الحياة زائلة لا بقاء لها، وأن الآخرة هي دار البقاء، فنجد تساؤلات لدى شاعرنا في البيتين، فهو يسأل لماذا تستاق العتاق إلى حلبة الموت جرية وهي تدرك أنها سوف تخسر حياتها أمام الموت الذي في جريه لا

(1) حركة النقد: 205.
(2) ديوان أبي عبد الله ابن الحداد الأندلسي: 281.
(3) المصدر نفسه: 258.
(4) ديوان أبي عبد الله ابن الحداد الأندلسي: 280.
(5) ينظر: ديوان أبي عبد الله ابن الحداد الأندلسي: 279.

يعرف الكلال أبداً.

وفضلًا عن أنها لم تلبس الدروع وأنها لا تحمي صاحبها من طَعْنِ رماحِ الموتِ، فهذه التساؤلات لدى شاعرنا عكست يأسه من الحياة، إلا أنَّ «اليأس والرجاء نقيضان يتعاقبان كتعاقب الخيبة والظفر[1].

تُوجه (أنا) الشاعر الحكيمة النصيحة للإنسان لئلا يُصِرَّ على شيء لم يكن من نصيبه، وإذا خسر الذي تمناه فلا يجب عليه الحزن والألم. فقوله:

(الطويل)

فلا تَكْرَهَنْ إنْ خاسَ قَوْمٌ بَعْدِهِم
عَسَى الخَيْرُ في الشيءِ الذي انتَ كارِهُ[2]

يقتبس الشاعر المعاني المتضمنة أسلوب النهي عن الشيء سواء أكان شراً أم خيراً، مشيراً إلى معنى ودلالة قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾[3].

كما ينصح شاعرنا بعدم اليأس والتحلي بالصبر الذي حثنا عليه الله (سبحانه وتعالى) في كتابه الحكيم وبذلك يكون كاسباً الآجر والثواب، ولهذا نجده يقول في أشعاره الحكيمة:

(الكامل)

وَلَرُبَّما أعْطى الزَّمَانُ مَقَادَهُ
لا تَيْأَسَنَّ فَرُبَّ صَعْبٍ أمْكَنا[4]

إذ يدعو الشاعر في هذا البيت إلى عدم اليأس من الحياة، فلربما انقاد الزمان لنا فسهلت الأمور وتحسنت الاحوال. ويقول في النصح والإرشاد:

(الكامل)

واصَلْ أخاكَ وإنْ أتاكَ بُمْنكَرٍ
فَخُلُوْصُ شيءٍ قَلَّمَا يُتَمَكَّنُ
ولِكُلِّ شيءٍ آفةٌ مَوْجُودَةٌ
إنَّ السِّراجَ على سَنَاهُ يُدَخِّنُ[5]

إنَّ ديوان ابن الحداد لم يخلُ من المقدمة الحكيمة، ففي غرض الرثاء وردت الحكمة؛ لأنَّ الحكمة والنصح والوعظ يتناسبان مع الأجواء النفسية للشاعر، ففي رثاء والدة المعتصم بن الصمادح نجده يقول:

(الكامل)

هَيْهَاتِ ما تُغْنِي القَنابِلُ والقَنَا
والمَشْرَفِّيةُ في مُلاقاةِ المَنَى
في كلِّ شَيءٍ للأنامِ مُحَذِّرٌ
ما كانَ حَذَّرَهُ شُعَيْبٌ مَدْيَنا
وحَيَاتُنَا سَفَرٌ ومَوْطُنَا الرَّدَى
لَكِنْ كَرِهْنا أنْ نُحَلَّ المَوْطِنا[6]

نلحظ أسلوب شاعرنا في المقدمة قد انتقل من العموم والموت إلى الخصوص وهو رثاء والدة المعتصم بن الصمادح؛ ليخفف ما ألمَّ بالمعتصم من فجيعة وألم.

كما نراه لم يتخلَّ في أبياته الشعرية عن توظيف أسلوب الوعظ والنصح والإرشاد إلى الخير والأخلاق الفاضلة، فيقول:

(الطويل)

وليس يَحِيْقَ المَكْرُ إلاَّ بِأَهْلِهِ
وكم مُوْقِدٍ يَغْشاهُ مِنْ وَقْدِهِ لَفْحُ
ومَنْ تَكُنْ الأقْدارُ مُسْعِدَةً له
يعد شَيباً عَذْباً له الآجِنُ المِلْحُ[7]

نلمس في هذا النص الشعري اقتباسَ صدر البيت من القرآن الكريم وذلك في قوله سبحانه

(1) الفروق اللغوية: 435.
(2) ديوان أبي عبد الله ابن الحداد الأندلسي: 304.
(3) سورة البقرة: الآية: 214.
(4) ديوان أبي عبد الله ابن الحداد الأندلسي: 280.
(5) المصدر نفسه: 259.
(6) ديوان أبي عبد الله ابن الحداد الأندلسي: 279 – 280.
(7) المصدر نفسه: 179.

وتعالى:﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[1].

وفي هذا الصدد (باب قبح المعصية) يحدثنا ابن حزم بقوله: «وكثير من الناس يطيعون أنفسهم يعصون عقولهم ويتبعون أهواءهم ويرفضون أديانهم ويجتنبون ما خص الله تعالى عليهم»[2].

لذا نجد الشاعر ينصح الناس من أجل الحصول على أخراهم، وأن لا يغفلوا عن حقيقة الحساب وعذاب الله يوم القيامة، فالدنيا ومتاعها وجمالها زائل، ومغرياتها تؤدي إلى الهلاك ونار جهنم إذا اتبعنا هذه المغريات، وهذه النار قد أعدها الله سبحانه وتعالى للذين ظلموا أنفسهم، واتبعوا شهواتهم، واشتروا الدنيا بالآخرة، فجعل هذا الوصف للغافلين عن حدود الله وتقواه فالقلب يتأثر بهذا الوصف، على نقيض العين التي تؤمن ما تراه فقط[3].

من هنا نجد أن الأنا الحكيمة كانت إما قد عبرت عن تجاربها في الحياة فصاغتها لتقدمها للأجيال السابقة أو أنها جاءت لتكون: «وليد الفكر المثقف الذي يجول في كل ميدان وعصارة الفن الناضج الذي يكسب المعاناة رأياً وللرأي حكمة»[4].

ولهذا كانت (الأنا) هنا مختلفة عن كل الأنواع؛ لأنّها جاءت لسان حال الشاعر، ولسان حال كل إنسان.

الخاتمة.

لقد اهتدى البحث إلى جملة من النتائج نوجزها بما يأتي:

1. كانت أنا الشاعر تعاني وتتألم، وهذا واضحٌ في معظم قصائده، نتيجة الرفض والهجر من الآخر، وهذا الذي جعل الأنا تنظر إلى المرأة نظرة سلبية.

2. الحكمة علامة تدل على أرجحية العقل، فالأنا حكيمة في تعاملها مع الآخر الإنساني مستمرة في النصح والإرشاد.

3. إن العلاقة مع الآخر الإنساني تختلف بحسب طبيعة الآخر الممدوح، إذ إن الشخصية الأهم في ديوان ابن الحداد هو (المعتصم بن صمادح) فأعطاه النصيب الأوفر من أشعاره واشتمل مديحه على قيم دينية وخلقية، كما تغنى كثيراً بمثاليته في الحكم.

4. اكثر ابن الحداد من استعمال ضمير (المخاطب)؛ لأن هذه الحكم التي قدمها تصلح له ولأي شخص آخر يحمل (أنا) طموحة، الأمر الذي يعطي لشعره الحكمي سيرورة دائمة.

5. أتكأ ابن الحداد في حكمه على النمط المباشر تارة والإيحائي تارة أخرى، ففي النمط المباشر تطفى، الواقعيه على أدائه الفني ، في حين يكتسب النمط الإيحاني طابعاً ضمنياً إشارياً تلميحيا غير تصريحي.

(1) سورة فاطر: الآية 43.
(2) طوق الحمامة في الألفة والألاف: 114.
(3) ينظر: محاضرات في النص الأدبي القديم: 109.
(4) خليل شرف الدين: المتنبي: 139.

المصادر:

- القران الكريم:
1. ابو عبد الله اسماعيل البخاري، المجلد الاول، جمعية البشرى الخيرية للخدمات الانسانية والتعليمية، 1437هـ- 2016م.
2. الانا في شعر المتنبي، احمد ابا الصافي الجعفري، ط 1، دار نورشاد، 2015م.
2. البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، دار صادر- بيروت.
4. حركة النقد الحديث والمعاصر، ابراهيم الحاوي، ط 1، ص 203، مؤسسة الرسالة بيروت، 1404هـ- 1984م.
5. شعر الحكمة والزهد في عصر الطوائف، م. م. محمد عبد الرحمن محمود، العدد الثامن عشر، كلية الامام الاعظم الجامعة، 1435هـ- 2014م.
6. صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله - وسننه وأيامه)، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، ط1، 1422هـ.
7. طوق الحمامة في الالفة والالاف، الامام ابي علي محمد بن احمد بن سعيد بن حزم، (ت 456هـ) ط 5، ص 115، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008م.
8. الفروق اللغوية، ابو هلال العسكري، ص 435، ط 1، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع القاهرة، (د. ت).
9. لسان العرب، محمد بن منظور، ط 1، ص 688، دار صادر، بيروت- لبنان، 2000م.
10. المتنبي، خليل شرف الدين، 139، ط 1، م 1، دار المكتبة الهلال، 1992م.
11. محاضرات في النص الادبي القديم، د. راضية لرقم، ص 109، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، جامعة الاخوة منشوري قسطنطينية، 2019- 2020.
12. منهاج البلغاء وسراج الادباء، حازم القرطاجني، ط 3، ص 341، دار الغرب الاسلامي، 1986م.